

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول أو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالبة أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتهم عليهم ما لا يعرف ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم : من ه ونحن أهول في الصدور وأملاً للعيون . م الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ، والحر (ج) حمار) السود أثمن وأحسن وأقوى ، وسود الشاء أدسم ألبانيا وأكثر زيداً . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع . وأحسن الخضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جنتان) ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما : (مدهامتان) قال ابن عباس : خضراوان من الرى سوداوان ، وليس فى الأرض عود أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . ولا أجدر أن ينشب فيه الخيط من اليبوس . والإنسان أحسن ما يكون فى العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإنمد ، ونحس كأى الكلام سيول تتدافع ، وهى سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها مخصية إحصاء دقيقاً مواقعها فى الطبيعة وفى الحيوان وفى الحماد وفى الثمار والأشجار وفى الزروع والأعواد والأخشاب وفى الإنسان وفى الجنة ونعيمها الخالد . يسوى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من مناع موسيقى للآذان والأسماع ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات .